المبحث السابع

الطبيعة الحوارية للغة المنطوقة

الطبيعة الحوارية للغة المنطوقة

اللغة المنطوقة حوارية بطبيعتها؛ لأنها – في جوهرها – محادثة حوارية. والمحادثة الحوارية عملية تبليغية بين شخصين على الأقل:

١- تحدث بينهما في وقت واحد،

٢- وفي مكان واحد،

٣- عبر قناة اتصال بعينها؛ هي قناة الاتصال السمعية، أو السمعية والبصرية معًا،

٤- بحيث يستطيع أحدهما في أي وقت من زمن المحادثة أن يكون له دور في الكلام،

٥- وبحيث يربطهما موضوع مشترك.

ويمكننا - بالمصطلح السوسيولوجي– أن نجمع عناصر التعريف: ١، ٢ تحت مصطلح (موقف المواجهة face - to - face Situation)[1].

وتتخذ المحادثة الحوارية صورتين اثنتين هما: الديالوج والمونولوج. وتعني الصورة الأولى الحوار أو المخاطبة بين شخصين. أما الصورة الثانية، فهي أن يخاطب المرء نفسه. ومن أجل ذلك، فإن الديالوج يتميز بتغيير العلاقة بين المرسل والمستقبل (وهي علاقة ثنائية تتخذ هيئة: متكلم – مستمع، أو: كاتب – قارئ)؛ أي أن الديالوج يتميز بالمبادلة اللغوية exchange. أما المونولوج، فإن المستقبل (وهو متخيل غالبًا) يبقى معه صامتًا؛ أي أن المونولوج يخلو من المبادلة اللغوية. ولا تختلط الفروق بين الديالوج والمونولوج بالفروق بين (العالم المتحدث عنه besprochene Welt) و(العالم المحكي erzaehlte Welt)؛ ذلك أن وظيفة الديالوج – في الأكثر – هي التحادث، بينما تبدو وظيفة المونولوج – في الأكثر – وظيفة حكائية. بعبارة أخرى: فإن جوهر الديالوج هو تبادل الحديث، بينما يتجلى جوهر المونولوج في السرد والحكاية.

---

(1) Schank / Schoenthal, op. cit., S. 64

ولا ريب أن الديالوج شئ أولي، وهو أولي أيضًا بالمفهوم التاريخي؛ ذلك أن اللغة باعتبارها أداة تفترض وجود مشاركين لغويين. وبالمثل، فإن اللغة المنطوقة تعد أولية، إذا قوبلت باللغة المكتوبة (وينطبق هذا بالتالي على النظام الصوتي في مواجهة النظام الكتابي، والشفرة المنطوقة في مواجهة الشفرة المكتوبة).

ويستنتج مما سبق، أن هناك تفاعلاً خاصًا بين اللغة المنطوقة والديالوج؛ فالديالوج هو الشكل الرئيس للغة[1].

والفكرة السابقة ليست – كما نرى – جديدة، فكثيرًا ما أشار إليها اللغويون، من مثل ديفيد آبر كرومبي David Abercrombie، الذي يذكر أن المحادثة Conversation (=Dialouge) هي النمط الرئيس للغة المنطوقة. وهو يجعل المونولوج النمط الحقيقي الثاني لهذه اللغة. ولكنه ليس دائمًا شكلاً منطوقًا خالصًا؛ لأنه قد يعتمد على نوع من اللغة المكتوبة التي تقرأ جهرًا[2].

من أجل كل ذلك، أدخل بعض اللغويين صورة المونولوج في قائمة لغة الكتابة واللغة المكتوبة، على نحو ما فعل ألوا جدليتشكا Alois Jedlicka في قائمته التي يصورها الشكل التالي (الشكل ٩):

لغة الكتابة	–	**اللغة الدارجة**
اللغة المكتوبة	–	**اللغة المنطوقة**
صورة المنولوج	–	**صورة الديالوج**
السمات العامة للتعبيرات اللغوية	–	**السمات الخاصة للتعبيرات اللغوية**
الميل إلى المحافظة	–	**حيوية العناصر اللغوية وتجددها**[3]

الشكل (٩)

---

(1) Soell, op. cit., S. 30

(2) Abercrombie, D., Conversation and Skpoken Prose, in: D. Abercrombie: Studies in Phonetics and Linguistics, London (1965) p. 3

(3) Soell, op. cit., S. 30

وإذا كان المونولوج يعني مخاطبة الذات، فإن هذه المخاطبة قد تكون سرًا أو همسًا أو جهرًا. وليست وظيفة المونولوج في جميع هذه الحالات وظيفة توصيلية على نحو ما هو مألوف في نظرية الاتصال اللغوي، إلا إذا تغيرت صورته، وصار مقالة إنشائية أو سردًا. وهو – حينئذ – يمكن- كما فعلت هلجا فايدر Helga Feider – أن يتخذ مثالاً على اللغة المكتوبة. ومن أجل ذلك، فإن بحثها الموسوم بـ (الوصف النحوي المقارن بين الإنجليزية المنطوقة والإنجليزية المكتوبة) يمكن – كما يقول سول Soell – أن يعد بحثًا في المقابلة بين الديالوج والمونولوج[1].

وتبدو خلاصة هذه المقابلة في الشكل التالي الذي يقدمه لنا سول (الشكل١٠):

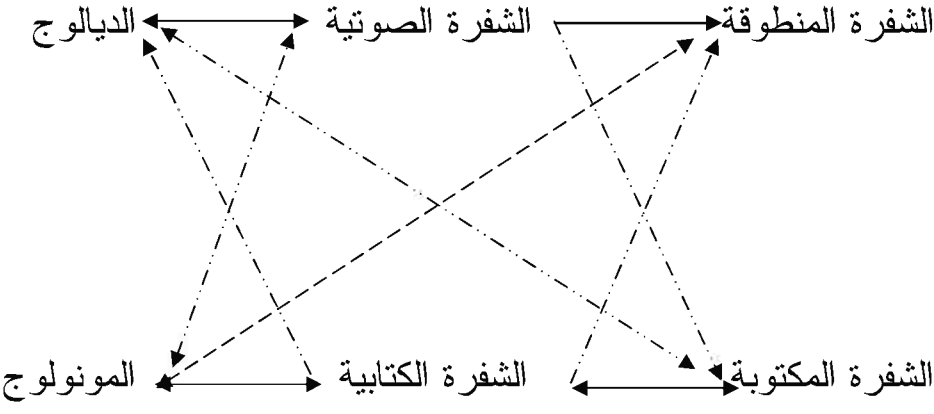

الشكل (١٠)

ونستطيع أن نضع على المحور الأعلى مؤشرات نحو (هذا، أنا، هنا، اليوم... الخ). وهي مؤشرات ترتبط باللغة الدارجة، وبالرغبة في الإيضاح، وبالموقف التبليغي (وهي في الوقت نفسه علامات على الديالوج)[2].

وإذا كان التفاعل بين اللغتين: المكتوبة والمنطوقة حقيقة لا يمكن إنكارها، فإن التفاعل بين الديالوج والمونولوج حقيقة ثابتة أيضًا.

---

(1) Soell, op. cit., S. 31
(2) Soell, op. cit., S. 31

وبمقدورنا أن نرى مثل هذا التفاعل في دخول نصوص مونولوجية في نصوص ديالوجية أحيانًا غير قليلة. وتفتح هذه المسألة الباب لدراسة ظاهرة التناص (أو التفاعل بين النصوص) Intertextuality في اللغة المنطوقة، بعد ما لقيته من عناية تستحق التقدير ففي بحث اللغة الأدبية المكتوبة. ونحن في حديثنا عن التفاعل بين اللغتين: المكتوبة والمنطوقة من ناحية، والتفاعل بين نصوص مونولوجية ونصوص ديالوجية من ناحية أخرى، ندرك الأهمية القصوى لبحث مسألة التناص إذا عرفنا أن التناص هو أحد المعايير الأساسية التي تتيح لنا الاعتراف بنصية النص.

لقد حرص العلماء في مجال علم لغة النص على جمع عينات من اللغة المنطوقة مع عينات اللغة المكتوبة جنبًا إلى جنب. ومثال ذلك ما فعله دوبوجراند de Beaugrande ودرسلر Dressler في جمعهما عينات لأنماط نصية متباينة لغويًا هي: إرشادات الطرق، وأغاني الأطفال، ومقالات صحيفة، وكتب علمية، ومحادثات متبادلة بين شخصين، وقصائد. وفي ضوء هذه النصوص عرّفا النص بأنه: حدث تبليغي تتحقق نصيته إذا اجتمعت له سبعة معايير هي: معيار التماسك Cohesion (ويختص بأشكال العلاقات المتبادلة بين مكونات النص السطحي (أي المفردات الحقيقية التي نسمعها أو نراها) داخل السلسلة اللغوية. ويعتمد هذا التماسك على علاقات نحوية ومعيار التآلف Coherence (ويختص بكيفية تآلف مكونات عالم النص فيما بينها؛ أي كيفية تشكيل المفاهيم والعلاقات الكامنة في النص السطحي، وقابلية هذه المكونات بعضها للبعض الآخر) ومعيار المقصدية Intentionality (وهو يرتبط بمستخدم النص لا بمادته على نحو ما في المعيارين السابقين. والمقصدية هي التي تجعل لعملية التوصيل النصي فاعلية. ويحتوي مفهوم المستخدم على كل من منتج النص ومستقبله) ومعيار القابلية Acceptability (ويرتبط بسلوك مستقبل النص، بحيث تصبح مجموعة الأحداث التي تكون نصًا متماسكًا متآلفاً مقبولة عند المستقبل، يستقي منها معرفة

من نوع ما) ومعيار الإخبارية أو الإعلامية Informativity (ويختص بمدى توقع الأحداث المعروضة في النص أو عدم توقعها، والإحاطة بهذه الأحداث أو الجهل بها. ولابد لأي نص من أن يكون إخباريًا على نحو أو آخر، مهما كانت صورة الإخبار والمضمون المخبر عنه) ومعيار الموقفية Situationality (ويختص بالعوامل التي تجعل النص مناسبًا لموقف الحدث وظرفه: فليس مناسبًا مثلاً أن تقرأ إرشادًا من إرشادات المرور يقول: "أسرع، منطقة سكنية"!؛ فالمناسب لموقف الحدث هنا هو تهدئة السرعة لا الأمر بها) وأخيرًا معيار التناص (ويختص ببحث علاقة النص بنصوص أخرى، والعوامل التي تجعل استخدام النص معتمدًا على ما يقدمه نص - أو نصوص سابقة- من معرفة، فهو إذن عبارة عن حوار النص مع نص أو نصوص أخرى تتدخل في تحديد القواعد التي تحكم مضمونه وتوجهه)[1].

وأود – بناء على استقرائي عدة نصوص منطوقة – أن أسجل الملحوظات العامة التالية:

أولاً: أن أكثر نماذج هذا التناص قد وردت في محادثات عائلية مباشرة، بينما تندر جدًا في المحادثات الرسمية العلنية.

ثانيًا: أن صور التناص اللغوية لا تقف عند حد الكلمات المفردة أو أنصاف الكلمات، بل تتعدى في حالات غير قليلة (لاسيما في المناقشات العاطفية والانفعالية) الجملة أو العبارة أو المنطوق، حتى تصل إلى التضمين بمثل شائع، أو قول مأثور؛ أو جزء من أغنية مشهورة أو طريفة.

ثالثًا: أن لهذا التناص المونولوجي أثره الواضح في النماذج التي يشيع فيها توجيه المقاصد الجزئية والكلية للخطاب على حد سواء، وربما استخدمت أداة للتعمية على المخاطب إذا اختلف معه المتكلم في وجهة النظر، أو إذا لم يبد المتكلم تفهمًا مع مقاصد المخاطب بوجه عام.

---

(1) de Beaugrande, Robert – Alain / Dressler, Wolfgang Ulrich, Introduction to Textlinguistics, Longman, London and New York (1981) p. 11

وإذا كانت المهمة الأولى للغة هي إقامة الاتصال بين الأفراد: مكتوبًا أو منطوقًا، فإن أهميتها في صورة المونولوج، أو ما يسميه رومان ياكوبسون Roman Jacobson بالاتصال الداخلي Intrapersonnelle[1] مما يستحق التنويه به كذلك. وكثيرًا ما يعد المونولوج (بمعنى حديث الذات أو الاتصال الداخلي) تمهيدًا منظمًا (بكسر الظاء) لعملية المشاركة في الديالوج، بل لقد جعل تفريغه وإظهاره كلاميًا أداة فنية خطيرة فيما عرف في الرواية الحديثة بتيار الوعي. وهو مما يسمح للشخصية بأن تفصح عما تريد بما لا تستطيع أن تفصح به على نحو مباشر وعلني أمام مشاركين حقيقيين في الحديث.

(1) Jacobson, Roman. Linguistique et Communication, Laffont, Paris (1975) p. 107